

غرفة عمليات لما بعد الزلزال

نوفمبر ١٩٩٢

عندما كانت مدينة لندن تدق بأطنان القنابل المدمرة يوميا أثناء الحرب العالمية الثانية ، كانت جميع الأجهزة الرسمية والتطوعية تعمل على انقاذ الجرحى ودفن الموتى وإزالة آثار التدمير الرهيب ، وكان السكان يلجأون يوميا الى الخنادق والملاجئ تحت الأرض ، وكان الشعب يعيش على نظام شديد من التقشف في المأكل والملبس ، والامهات يحملن أطفالهن ويهاجرن بهم الى معسكرات خاصة في المناطق الريفية . كانت مباني لندن تنهار يوميا وتشب فيها الحرائق من جراء الضرب الجوى المستمر. في أثناء هذه الاحداث المتلاحقة وعلى مدى سنين الحرب الثانية كان هناك المخططون والعلماء الذين لاعلاقة لهم بالانقاذ أو العلاج أو التسكين والتموين يعملون ليل نهار في مخابئهم يدرسون ويبحثون في مستقبل هذه العاصمة بعد أن تضع الحرب أوزارها ... وانتهت هذه الدراسات في عام ١٩٤٥ الى وضع المخطط الاول لمستقبل لندن الكبرى سعيا الى تخفيف الضغط السكاني في العاصمة وإنشاء تجمعات سكنية جديدة حولها بهدف توزيع السكان على أوسع مساحة ممكنة من الارض لعلاج المشاكل التي تترتب على زحام العاصمة والتي كانت طعمة سائغة للقنابل والغارات التي فاقت كل الزلازل والكوارث ... وعندما وضعت الحرب أوزارها بدأت أعمال البناء والتعمير في المدن الجديدة بعيدا عن المناطق العمرانية المزدحمة.

وإذا كانت مصر قد مرت بعدد من الحروب والكوارث في العصر الحديث بداية من نكسة ١٩٦٧ الى زلزال أكتوبر ١٩٩٢ كما مرت بعدد من الازمات المترتبة على التكديس السكاني الرهيب في المناطق المزدحمة في المدن القائمة ، فيظهر ان الدروس المستفادة منها لم تنته بعد ... وان كانت مصر قد بدأت نشاطها في المدن الجديدة منذ ١٩٧٥ ثم في انشاء التجمعات السكنية حول القاهرة منذ ١٩٨٧م الا ان هذا النشاط لم يحقق كل أهدافه نظرا للتضارب في التوجهات الاقتصادية. فبينما الاسكان في المدن الجديدة ينهار في اطار الاقتصاد التعاوني أو الحر تجدد الاسكان في المدن القديمة لا يزال يدار في اطار الاقتصاد الاشتراكي الذي يقيد القيم التجارية ويخضعها للقوانين التي صدرت في أوائل الستينات والتي لا تساعد بأى شكل من الاشكال على النزوح الى المدن الجديدة . ومع كل ذلك زادت المشاكل الامنية والصحية والاجتماعية في المناطق المزدحمة في المدن القائمة ولم تتضح بعد الابعاد التنفيذية والتشريعية لتحقيق الاهداف الاستراتيجية العمرانية للدولة والتي تهدف الى خلخلة المناطق المزدحمة في المدن القديمة وتشجيع الهجرة الى المدن الجديدة ، وربما يكون ذلك راجعا الى عدم الرغبة في الدخول الى معركة التهجير وربما يكون ذلك راجع الى جماعات الضغط التي استشرت مصالحها في المخالفات البنائية والمتاجرة في أراضي الدولة ، وربما كان ذلك راجعا الى ضعف الاجهزة التنفيذية والرقابية.

واستمر الحال الى أن طلبت القيادة السياسية البحث عن مخرج قابل للتنفيذ لتأمين مستقبل القاهرة وكان ذلك في أوائل ١٩٩٢م ، وأمرت بتشكيل لجنة قيادية لوضع تصوراتها العملية لمواجهة مشاكل القاهرة وتحديد مستقبلها . واجتمعت اللجنة وقدمت مريئاً لرئيس الوزراء ، وانتهى الامر الى هذا الحد دون الاعلان عن النتائج أو الاساليب أو التوصيات وفقدت العملية مصداقيتها ... وفي نفس الوقت شكل وزير التعمير لجنة خاصة للبحث في أسلوب تفرغ المناطق المزدحمة في القاهرة من نسبة الانشطة والسكان التي تزيد على الطاقة الاستيعابية لهذه المناطق ... وتوقف نشاط اللجنة فور تشكيلها .

ربما تحسبا لما تسفر عنه اللجنة القيادية التي شكلت بقرار من رئيس الوزراء ... وتوقف الامر الى هذا الحد ... ثم أنشأت وزارة التعمير مع ذلك جهازا لتطوير منطقة القاهرة التاريخية وذلك بالتنسيق مع الجهات ذات العلاقة مثل : الاوقاف والآثار ومحافظة القاهرة ، دون أن يكون لمثل هذا الجهاز الصلاحيات الكاملة لتطوير المنطقة شاملة الاختصاصات التي تنتقل اليه من الجهات السابقة ذات العلاقة كما هو الحال في مشروع تطوير صنعاء القديمة أو مدينة فاس أو مدينة تونس أو مدينة حلب أو غيرها ، وقد تم التنبيه الى ضرورة انشاء جهاز له كل الصلاحيات لتطوير القاهرة الاسلامية منذ عام ١٩٨٠ م ، ولكن ما من مجيب .

وإذا كانت الدولة لم يقدر لها القيام بتفريغ الفائض السكاني من المناطق المزدحمة في المدن القديمة ومنها على وجه الخصوص . مدينة القاهرة بسبب العوامل السياسية أو الاقتصادية أو الادارية أو التنفيذية بالرغم من التنبيهات العلمية على مدى ثلاثين عاما. فقد جاء زلزال أكتوبر رحمة للعالمين . اضطرت معه الدولة الى اسكان من فقدوا مساكنهم في مناطق الاسكان الجديدة فحاء تفريغ القاهرة من عند الله الرؤوف الرحيم ، وأصبحت الامور واضحة أمام القيادات التي انشغلت في تدبير وسائل العلاج والاعاشة للمنكوبين وازالة آثار الزلزال وقامت جميع المؤسسات والهيئات تعمل بقلب رجل واحد تقدم مالدورها من معونة لمواجهة هذه الكارثة القومية ، ولعل في ذلك دافعا للبدء في تقرير مصير المناطق المزدحمة في القاهرة الكبرى ومستقبلها في ضوء ما أصابها من انخيارات وتصدعات وما صاحب ذلك من وفيات واصابات . وإذا كانت الدولة مشغولة بكل أجهزتها في معالجة آثار الزلزال ، فلا أقل من أن تشغل نفسها في نفس الوقت بمستقبل القاهرة وغيرها من المدن القديمة . هذه هي البداية... وهذه هي الفرصة الذهبية التي يمكن أن يقتنع فيها المجتمع بضرورة الانتشار على رقعة أوسع من الارض واخلاء المناطق المتدهورة والحد من الارتفاعات والابراج والضرب على أيدي المخالفين للشروط الفنية والتشريعية سواء من المسؤولين أو من أصحاب العقارات ... وهذه فرصة ذهبية لاعادة النظر في تأهيل المهندسين والفنيين حيث ظهر أن معظم المهندسين العاملين في الادارات العامة للاسكان في الاحياء ليسوا من المؤهلين في أعمال البناء والتنظيم فمنهم مهندسو ميكانيكا أو كهرباء أو كيمياء أو تخصصات أخرى لا علاقة لها بالبناء أو التشييد.

في هذا الجو المشحون بالتضحية والجدية لا بد وأن تبدأ الدولة وبنفس القوة والجدية في تحديد الاستراتيجية العمرانية لمصر ووضع البرامج التنفيذية والتشريعات القانونية واللوائح التنظيمية التي تدعم هذه الاستراتيجية ، وتنقلها من حيز النظرية الى حيز التطبيق بعد أن تمت القناعة التامة بأهمية هذه الاستراتيجية ليس فقط لمواجهة أى هزات أرضية مستقبلية ولكن لمواجهة الهزات الاجتماعية والصحية والامنية التي تتوقعها أجهزة الاستشعار الفكرى من بعد. وإذا كانت الدولة قد أقامت غرفة عمليات مركزية في مجلس الوزراء لمواجهة المشاكل الناتجة من الزلزال ، فلا أقل من أن تقيم غرفة عمليات موازية لمواجهة مشاكل ما بعد الزلزال والمتمثلة في: الاستراتيجية القومية للتعمير ... هذا هو التحدى الحضارى الذى تواجهه مصر قبل أن تدخل الدولة في حالة الاسترخاء المنتظرة بعد الزلزال الكبير. وإذا كان من فقدوا مساكنهم قد نقلوا الى مناطق الاسكان الجديدة للاستيطان الدائم فبعض ذلك أنهم لن يعودوا مرة أخرى الى مناطقهم القديمة ، وهنا يمكن أن تدخل الدولة لتعويض أصحاب الاراضى التي أخليت بانها بأرض أخرى في المدن والمجتمعات الجديدة ، مع الزيادة في عوامل الطرد من الجهة الاولى وزيادة عوامل الجذب في الجهة الثانية ، الامر الذى يتطلب العديد من اللوائح والتشريعات والنظم الادارية مع

وضع البرامج التنفيذية التي تحقق هذه الاهداف ، واذا كان العديد من المدارس قد انهار فلا أقل من إعادة بنائها على مواقع جديدة في المناطق السكنية الجديدة ... وهكذا ...